

صغار في لعبة الكبار

يكاد نشاط مؤسسات الرعاية يختصر على مستوى الفرد ما بات يحتاج اليه لبنان على مستوى الجماعة والمجتمع .

يكاد لبنان يكون موطن الصغار . فنحن نحتاج الى الرعاية ، ونكاد نقول الوصاية ، بعدما اغرقنا انفسنا في لعبة الامم وبلغنا فيها حد الانتحار .

ما اشبهنا بصغار لعبوا لعبة الكبار ، فانتهوا صغارا في لعبة الكبار .

لعبنا لعبة الكبار ، مفترضين ان قوى العالم في خدمتنا ، رهن اشارتنا ، طوع بناننا .

خيّل لبعضنا ان العالم العربي كله يؤازره ، ولبعضنا ان العالم المسيحي كله يسانده ، ولبعضنا الآخران العالم الاسلامي كله يناصره .

أوهم بعضنا نفسه ان الولايات المتحدة الاميركية لا تتخلى عنه ، وتصوّر بعضنا ان الاتحاد السوفياتي لا يفكر الا فيه ، وبعضنا الآخران فرنسا او بريطانيا او الفاتيكان ، او حتى اسرائيل ، لا تخذله .

فانخرطنا في لعبة الامم ، بعضنا من باب التعريب وبعضنا من باب التدويل ، وقلة مارقة من باب التصهين . فغمرتنا قوى العالم المتحضر بفيض من دمي اللعبة الجهنمية ، وفيها آخر ما توصلت اليه صناعة الحرب من ادوات التدمير والتخريب والابادة ، ومن شتى العيارات : خفيفها ومتوسطها وثقلها .

تسلق سادة الحرب سلم التدويل والتصهين . وكان كل منهم ، مع كل درجة يرتقي بقضية لبنان على ذلك السلم ، يتصوّر انه يتقدم من الانتصار على ابناء وطنه خطوة . فبتنا في طلب الفرج والخلاص نتطلع الى موقف يصدر عن هذه الدولة العظمى او تلك ، وترقب النتائج التي قد يسفر عنها لقاء بين هذا الزعيم وذاك ، عسى ان نعثر فيها على ما يضمن مصير لبنان تلميحا او تلويحا .

كل فريق في لبنان كان له نصيب مما ينشد . فاذا لبنان مسرح لصراعات الغير على ارضه ، وقد اختلطت فيها عناصر التعريب بعناصر التدويل والصهينة . طلبنا الانتصار بقوى خارجية ، فانتهينا وحربنا مستعصية والكل فيها مهزوم ، يدفع ثمن هزيمته من امه وكرامته ، من حاضره ومستقبله ، واخيرا من لقمة عيشه ورزقه .

أبيننا الوفاق في البدء فيما بيننا ، فانتهينا نراهن على الوفاق بين الجبابرة من الدول . واكتشفنا بعد طول معاناة ان هذا الرئيس عندما يلتقي ذلك ، فحرب النجوم هي محور النقاش والتسلح النووي هو الموضوع ، وليس لبنان ، اذا تذكروا لبنان فلنكني يذكره بعبارة جوفاء تؤكد الحرص على وحدته واستقلاله وسلامة اراضيه . هكذا تتوالى اللقاءات والمؤتمرات ، وبعدها يذهب كل في سبيله ، ويبقى لبنان ساحة مستباحة لصراعاتهم ونزاعاتهم . ويبقى اطراف اللعبة في لبنان في مواقعهم ، يتلقون المال والسلاح والذخائر من المتصارعين على المسرح الاقليمي والدولي ، ومعها الاوامر والتوجيهات والمواقف . فتستمر طاحونة المحنة في الدوران .

هكذا صحَّ فينا القول : نحن الصغار الذين لعبوا لعبة الكبار ، فانتهينا صغارا في لعبة الكبار .

فهل من عجب اذا قلنا ان لبنان أضحى موطن الصغار ؟

كنا كلنا صغارا في تفكيرنا وسلوكنا ، صغارا في اهوائنا ورهاناتنا وارتباطاتنا . ومن لم يكن منا كذلك ، كان صغيرا في سكوته على الضيم ، في صمته على الهوان .

كنا صغارا في انسياقنا الى لعبة الكبار واستسلامنا لها . كل من شارك في اللعبة منا صغير ، وبين من انغمسوا فيها وغرقوا ، صغار من الشيب والشبان والاطفال . ففي بلد العجائب طفل في الثلاثين ويقع في الاربعين ومراهق في الخمسين وطائش اوزانغ او ارعن في الستين والسبعين والثمانين . كلهم ضالعون في اللعبة الجهنمية ، وبينهم من مارسوا السلطة على اعلى مراتب المسؤولية بالكثير من اللامسؤولية .

وبتنا بعد كل الذي حلَّ بنا وبمجتمعنا ووطننا من الكوارث والفواجع ، نتطلع الى اعجوبة تنقذنا من واقعنا ، توقظنا من حلم ليلة عاصفة ، او من كابوسها ، فيأتينا من يعلن بالقلم الملائن ان اللعبة انتهت ، وينتزع من ايدينا كل الدمى التي كنا نلهو بها هو المجانين : المدافع والصواريخ والدبابات وحتى الرشاشات والمسدسات ، ويفكك ما شيدنا من هيكليات الحرب المدمرة ، فيجُلّي عن ساحتنا المرافئ غير الشرعية ومعابر الذل والهوان والادارات المدنية والهيئات الشعبية والصناديق الوطنية وحرركات التضامن الفئوية ، وقبلها جميعاً الميليشيات العسكرية .

أنيّ لنا بمن يعيدنا الى صوابنا ، فيصعق في وجهنا قائلا : انتهت اللعبة ، فليذهب كل لاعب الى حيث كان . . . ليذهب العامل الى معمله ، والطالب كما المعلم الى مدرسته ، والحرفي الى محترفه ، والموظف الى مكتبه اما المجرم ، واما الذي امتهن العنف والقتل والنهب ، واما الذي ارتهن لعدو لبنان والعرب ، فيلى الجحيم .

أنيّ لنا بمن يقول لنا : انتهت اللعبة وانطوت صفحة التسلط والعريضة ، انقضى عهد الابرار والاستغلال والوصولية ، زمن الشعارات الزائفة وتسخيرها للارثاء غير المشروع وتحقيق الجاه الفاجر ، والعبث بمصير الوطن باسم العائلة والطائفة او المذهب .

أنيّ لنا بمن يقول : انتهت اللعبة بعدما استنفدت مادتها ومدادها ، بعدما اوصلت لبنان وطنا ومجتمعا ودولة

الى صميم الانهيار ، وبعدهما تساوى المسلمون في الفقر والعذاب والهوان ، لا بل بعدما غابت البسمة عن الشفاه وغاضت العبرات في العيون .

أنى لنا بمن يقول : اللعبة انتهت وانتهى معها زمن التشرذم والتفتت .

نحن اللبنانيين علمنا الناس درسا جديدا في الحساب ، هو ان الجمع قد لا يكون له بالضرورة حاصل . ففي حسابنا ان مجموعة الاشجار مهما بلغت كثافتها قد لا تعادل غابة ، وانما تبقى مجموعة من الاشجار .

في هذا المنطق الحسابي ايضا ، اظهرنا للعالم ان مجموعة مؤسسات عامة قد لا تشكل دولة ، وان مجموعة ألوية قد لا تشكل جيشا ، لا بل ان مجموعة كتائب قد لا تشكل لواء . وعلى هذه القاعدة ايضا ، فان مجموعة مناطق قد لا تشكل وطنا وان مجموعة طوائف قد لا تشكل شعبا . كما وان مجموعة وزراء لا تشكل حكومة ومجموعة زعماء قد لا تشكل قيادة . وديمقراطيتنا لم تتطور لتغدو في حكم المؤسسة وبقي المجتمع في فئاته متلازما في السياسة ومجموعة من المتزعمين اذا ارادوا أراد . هذا ما يريدون له من ديمقراطية . اما اكثر من ذلك ، فليس لهم فيه مكان .

ويستقيم الوضع في لبنان عندما ثوب الى القواعد الحسابية الصحيحة فبني دولة ونشيء جيشا ونكوّن شعبا ومجتعما . فتكون الدولة واحدة ، اما المؤسسات فمن بناتها . ويكون الجيش واحدا ، اما الالوية فمن تفرعاته ، ويكون الشعب واحدا ، واما الطوائف فمن آيات غناه وتنوعه في معتقداته ، فلا تبقى الطوائف ولا المذاهب في أي حال عناوين دينية لتيارات سياسية او لعصبيات فئوية .

أنى لنا بمن يقول : اللعبة انتهت ، فلتبتلع الارض كل لاعب صغير ولتبتلع معه كل شعارات الحرب العبيثة . فلا تبقى على أديم الارض في لبنان الا شعارات السلام بين ابناء الشعب الواحد ، ومعها شعارات التحرير في وجه العدو الصهيوني الغاصب . ففي موطن الصغار ، ابطال التحرير هم الكبار . . . كبار في لبنان وبين العرب .

شعارنا هو : لا للمساومة على الاصلاح ، نعم لانهاء حال الحرب .

لا للنزاع المسلح ، نعم للصراع السياسي .

١٩٨٧/٥/٦

في إفطار دار الأيتام الاسلامية